شلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٥ —

فى تصويرنا لشلر كإنسان له أخلاقه الرفيعة ، لا يمكن لوصفنا — على أى حال — إلا أن ينتقص من كمال حياته ، لأن أقلامنا تعجز عن وصفها الوصف اللائق بها . لقد نال هذا الرجل ما يأمله بصورة عجيبة . وحياته — على الأقل — من مرحلة رجولته لم تزل حتى الآن غير مشوشة وذات أسلوب واضح . وقد أخفق انتصاره الكامل عنا عظم النضال الذى خاضه ببسالة نادرة . يمكننا — إجمالا — الاعتراف بأن سلوكه لم يكن عظيما بمقدار قداسته وربما لا يصفه شئ مثل وصفنا إياه بالراهب ، بما يمتاز به اللقب من سمو روحى ونقاء وعزلة ، على أن هذا الوصف لا ينطبق على مظهره الخارجى فى شئ . لقد استحوذ على طبيعته حماس منقطع النظير وفى هذا تكمن قوته وفى هذا يتضح الواجب الذى عاهد نفسه على أدائه ، وقد عاش فى سبيل هذا

لم تقم الميول الاجتماعية بأى دور فعال فى حياته ، وكابن وزوج وأب فهو دائما حنون ومخلص ولطيف ولكن نادرا ما كانت تؤثر فيه الأشياء الخارجية تأثيرا يشبه فى شئ العاطفة العارمة . فهو لم يمتلك من الحرارة والحب المستعر والنحيب مثلا ما كان يمتاز به معاصره الاسكوتلندى (برنز) ، وفى الحقيقة فإن اتجاهه وأمله كانا مصوبين نحو المثل الأعلى لا لما هو واقعى أرضى . وكانت سعادته العظمى لا تعنى فى شئ بالشرف الظاهرى أو الأبهة أو اللهو أو التسلية الاجتماعية أو حتى الصداقة نفسها .. بل كان همه الأكبر منحصرا فى مملكة الشعر ومدينة العقل الفضلى حيث الحياة النبيلة الحقة . وكذا الحال مع عاداته فإنها كانت أميل إلى العزلة لأن شغله الشاغل وسروره البالغ لم يتعديا نطاق التأمل الصامت ، يقول أحد شراحه : (إن عدم تساهله مع الذين يقاطعونه ويعيقون أعماله هو الذى اضطره إلى اللجوء إلى الدراسة ليلا ، على ما فى هذا العمل المؤذى من إعياء ومن تعب . وقد شرع بهذه الممارسة فى (درسدن) ولم يتركها قطعاً بعد ذلك . وقد كانت تسليته الوحيدة هى العزلة ، فكانت سواحل نهر (الإيلب) ملجأه المحبب صباحاً ، وكان هناك يتجول فى وحدته بين الكروم والمروج والخمايل الجميلة تاركا ذهنه يسرح فى الخيال العذب ، أو متأملا فى مواضع الفتنة من الطبيعة الساحرة أو منغمساً فى دراساته التى كانت تشغله دائما وأبداً ، أو كان يرى جالساً فى بعض الأحيان فى الجندول الطافى على صفحة النهر الناعسة ، وكان يسره كثيراً أن يكون هناك عندما كانت العواصف تهدر والرياح تزمجر حتى يجد لنفسه المضطربة راحة فى اضطراب الطبيعة ! وكان الخطر يعير شيئاً من السحر لوضعيته ، وكان يشعر بالانسجام التام بالمنظر الثائر ، عندما كانت العاصفة تجتاح السماء ، وكانت الغابات تردد صوت هذا الاجتياح ، كما أن النهر كان يشارك السماء فى هذه الثورة الجامحة فيهتز ملتويا بتأثيرها ، وترتطم أمواجه بعضها بالبعض الآخر فتحدث ضجيجا هائلا . وفى هذه الأثناء اشترى له حديقة فى ضواحى (ينا) بالقرب من دار (ويسلهوفت) التى كانت مركز إدارة مجلة (الكيانيه ليتراتور زايتنغ) وهى المجلة الدائمة الصيت فى ذلك الوقت ، وإذا

فى كل مكان ، وسرعان ما سُجدت أوربا تحت أقدامه واحتل البلقان ، وهنا تقدمت روسيا تطلب أن تعطى ميناء على البحر الأبيض ، ولكن هتلر رفض ، فانضمت روسيا إلى إنجلترا ، وكانت الدولة الأوربية الوحيدة التى بقيت صامدة أمام هتلر وإلى أمريكا . وكان انضمام روسيا إلى إنجلترا وأمريكا أكبر أسباب هزيمة هتلر وسقوط دولته

وانتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، وانقسم حلفاء الأمس إلى كتلتين متعاديتين : إحداها شرقية وهى روسيا ، والأخرى غربية وتضم إنجلترا وأمريكا وفرنسا

ومن الطبيعى أن تنضم تركيا إلى الدول الغربية ، فهى تعلم أن روسيا لم ولن تتخلى عن مطامعها فى أراضيها ، ولعل فى انضمامها إلى المعسكر الغربى ما يحفظ كيانها ويبقى على سلامتها

أبو الفتوح عطيفة

نظرنا إلى المكان فى سوق (ينا) فهو يقع فى الجنوب الغربى من المدينة بين (انكليكاتر) و (وينوتور) فى الممر الضيق حيث يجرى فرع من نهر (لوترانباخ) حول المدينة

بنى شلر بيتاً من طابق واحد فى قمة المرتفع الذى يشرف على منظر غاية فى الجمال فى وادى (ســال) بما يحيط به من غابات الشربين . وكان هذا المكان مسكنه الحبيب إليه أثناء ساعات كتابته؛ وأكثر مؤلفاته التى دبجها يراعه فى ذلك الوقت كتبت عنا . وكذلك الحال فى الشتاء فإنه كان يعيش بعيدا عن ضجيج الناس وجليتهم وذلك فى دار آل (كرسباغ) خارج خندق المدينة . وكان عند جلوسه بالقرب من المنضدة يحتفظ دائما بقهوته الجاهزة أو الشوكولاته ، وغالباً ما كان يقتنى قنينة من شراب الراين أو الشامبانيا لينعش نفسه المتعبة ، وكثيراً ما كان الجيران يسمعونه وهو ينشد بعض الأناشيد العذبة فى هدأة الليل . وكل من استغل فرصة مراقبته فى مثل هذه الأحوال — وكان ذلك فى غاية البساطة — بسبب المرتفعات الواقعة مقابل حديقته من الجانب الآخر من الوادى — كان يمكن أن يراه متكلما مرة بصوت عال أو ماشياً بسرعة جيئة وذهاباً فى غرفته أو رامياً نفسه على كرسيه ليكتب ثم يراه يقف ليشرب من القنينة التى بجانبه . وكان يظل بجانب منضدته شتاء إلى الساعة الرابعة أو حتى الخامسة صباحاً ، أما فى الصيف فكان يسهر إلى الثالثة فقط . ومن ثم يذهب إلى الفراش ليستيقظ فى التاسعة أو العاشرة

ويقول الشاوح مستطرداً «وكانت حياته فى وايمر تشبه حياته السالفة فى رينا » وكان شغله الشاغل هو الدراسة والكتابة . وكان يتسلى فى محيط عائلته ، حيث كان يترك لنفسه حرية التمتع بمسرات الحياة ومباهجها بصراحة مع قليل من أصدقائه المخلص . وقد جمع هؤلاء الأصدقاء فى ناد وجعل من هذا النادى مكانا للمتعة والتسلية البريئتين . وكان مع ذلك يحب النزهة المنفردة فى منتزهات وايمر وكان يرى غالبا متجولا بين الخمائل والأروقة المرمرية البديعة ، وبيده دفتر ملاحظات وهو يسير ببطء أو يقف هادئا متأملا ، وأما إذا رأى أحدا فيمرق مسرعا إلى طريق آخر لئلا تنقطع سلسلة أحلامه وتأملاته ، وكان ملجأه المحبوب هو الطريق الصخرى الكثيف الظلال المؤدى إلى بيت (رومش) وكان هذا البيت محل نزهة الدوق وقد بنى بإرشاد جوته ، وكان يجلس هناك بجانب الصخور الشاهقة المظللة بأشجار السرو والبقس وأمامه الأيك المعشوشبة على مقربة من جدول صغير يتدفق ماؤه فى قناة مبلطة ملساء حيث توجد بعض أشعار جوته منحوتة على لوح أسمر من الحجر مثبت فى الصخر [1]) . ولو أن هذه العزلة قللت من أهمية سلوكه الشخصى إلا أنها دلت على فضيلة كبرى من فضائله ، ألا وهى التجرد من نزهات الحياة وابتعاده من مباذلها ، فالإنسان لا يولد إلا ويجد أمامه مجالا من الرغبات العالية الطموحة ، ولا يكون الانتصار عليها كاملا خصوصا لإنسان مثل شلر . فوجد أن واجبه يقتضيه أن يساير مثل ذلك السلك من الحياة ، أعنى بذلك مسلك العزلة ، وقد جاهد بكل ما يملك من قوة وبأس على تأدية مثل هذا الواجب على أحسن صورة بعد أن اكتشفه لنفسه ، ولم يكن مصدر هذه العزلة ابتعاده عن مصالح الناس بل لاهتمامه بهم ، ويمكننا من بعض الإشارات والعلامات أن ندرك بأن واجب الشاعر بالنسبة لشلر فيما يخص الإنسانية هو أعظم قدرا وأكبر قيمة وأعلى دلالة من واجبه الشخصى تجاه نفسه ، ومع ذلك ، فقد تبين لديه بأنه كان يرمى (بمواهبه فى الماء لينتظرها فى وقت آخر) . وعندما تضمحل ضوضاء الغزاة والمشعوذين والمصلحين السياسيين تظهر الحكمة العلوية التى كانت كامنة فيه وتبقى بين الناس ليعترف بفضلها وتقدر قيمتها حق قدرها ، وعليه ولو أنه مات إلا روحه الخالدة لا تزال حية طافحة بالقوة والجلال . وقد حدثنا الكثيرون عنه فقالوا (إنه كان رقيقا شفافا بشوشا عطوفا لأقصى درجة ، ولم تستحوذ عليه رغبة أشد من رغبة إسعاد الناس أجمعين) ولم يكن فى إمكان أى شخص آخر أن يتحمل ما تحمله شلر فى سبيل أداء واجبه ، فقد كان هذا الواجب أغنيته فى المساء وصلاته فى الصباح .. لقد عاش ومات فى سبيله مضحياً — كما يقول جوته — بحياته فى سبيل تصوير الحياة

الكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

(١) حياة شلر